أما في حقل التاكتيك السياسي فثمة تقاطعات... ولكن المناخات الثقافية متباعدة، وقد قرأت من قبل عن بعض التجديدات التي كتبها الغنوشي والترابي وحنفي والقرضاوي وسواهم، ولكني لم أقرأ عن مثل هذه التجديدات في الساحة الفلسطينية... والكادرات الإسلامية في وسط الضفة هم أكثر مرونة وتفاهم مع الآخر من غيرهم، وفي غزة فإن إسلاميي فتح الذين عرفتهم في السبعينات كانوا طبعة متزمتة فما بالكم بحماس غزة اليوم... ولذلك، بداهة، صلة، بمستوى التطور الاجتماعي، ودون أن ننسى مبادرة "الشيخ" بالقدوم من غزة بحثاً عن تحالفات... فهو بذلك إنما يغلّب السياسي على الأيديولوجي... وهذا طبيعي في العمل السياسي... والبحث عن التحالفات شيء والتزمت والانغلاقية شي آخر، فالتحالف يعني في نهاية المطاف الاعتراف بالتعددية، أما الانغلاقية والفئوية، أو بصراحة لقد ذقنا على جلود المسيرة الوطنية آثار فئوية فتح وفردانية قائدها، وبصراحة أكثر إن الفئوية والفردانية يفضيان للدمار مهما كانت لبوسهما، فأنا من أشد المعجبين بجيفارا وبالنهج اللينيني، ولكن "فردانية جيفارية" "ونهجية لينينة" من شأنهما قيادة الشعب إلى الهلاك، ذلك أن شعبنا متنوع وتراكيبه متعددة ويخضع لعوامل خارجية متناقضة، ولا ينقذه إلا التعايش أو التلاقي أو التحالف أو الوحدة الوطنية في مرحلة النضال التحرري، وحالياً الدفاع عن الوجود، والحقوق والصمود... وسوى ذلك سوف تنفلت التناقضات وتستشري المصالح الفئوية والشخصية، فما بالكم إذا ساد احتكار الحقيقة والمقدس!

في قادم الأيام قد تكون التقاطعات سيدة الموقف... تقاطعات سياسية أو ثقافية أو أو... على أن نسعى في العقود المقبلة لتكريس المواطنة والهوية الجامعة، فدونهما تتذرر الهوية ويتفكك المجتمع... ومن قبل تبنينا ثلاثة مستويات في التحالفات ١- تحالفاً سياسياً ٢- تحالفاً ميدانياً ٣- تحالفاً على موقف واحد... وهي لم تنفك صالحة... مع الإشارة أن المجتمع الفلسطيني يشهد مخاضاً جديداً، إما أن يلد العودة للوحدة الوطنية والنضال الوطني أو وليداً أمريكياً- إسرائيلياً غير شرعي عنوانه مدريد... وبناء على ذلك تتحدد تحالفاتنا وتقاطعاتنا...

إننا نمر بمرحلة انتقالية غاية في الغرابة وغير مألوفة، ولكنها لن تطول، فمفاوضات واشنطن سوف تفضي إلى شيء يتناسب مع أرضيتها والفاعلين فيها. وهذا مأزقنا الوطني والحزبي.

وبالنسبة للقوى اليسارية، ففريق حواتمة الذي انشق من على يسار الشعبية، أصبحت الجبهة الديمقراطية بما لها من وزن، تتوسط في تاكتيكات عديدة، بل في مسيرتها إجمالاً، بين الشعبية وفتح، أي أنه انشق «كأكثر» يسارية وصار «أكثر وسطية»... ولم تنجح تجربة القيادة المشتركة والتحالف الرباعي... وعلى الأغلب أن نتمفصل معها ضد مسار مدريد ونتائجه، وهذه حال القوى اليسارية الأخرى... ولكن ماذا عن السنوات المقبلة؟ «حينما نصل الجسر نعبره» حسب المثل البريطاني، أي نقوم بتشخيص المعطيات ونحدد موقفنا بناءً على ذلك... ولكن مثلما «خبطت» البريسترويكا الأحزاب الشيوعية وأربكتها وشتتتها، فسوف تؤدي نتائج مدريد لشيء مشابه على الصعيد الفلسطيني... ويفيدنا أول ما يفيدنا شعار كاسترو (الاعتماد على الذات) فقد صمد النظام في كوبا رغم المصاعب الجمة. وتعرفون أن كاسترو اختلف مع غورباتشوف، وهذا الأخير لم يسمع في أوروبا الشرقية ما سمعه في هافانا... أجل العامل الذاتي... أولاً أن نحافظ على حزبنا ووزنه ونهجه المستقل وبعدئذ تأتي